قصة سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. ﴾.

كانت سبأ موطن ملوكُ اليمن وأهلها، ومنهم بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكانوا في نعمة لا تبارى، وغبطة لا تجارى. كانت اليمن بلاداً مستفيضة الرقعة، ذات أودية عريضة، وتربة خصيبة، ولكنها كانت شحيحة بالماء، مقفرةً من الأنهار، إلا وابلاً من المطر يتحدّر من سفوح الجبال، ثم يمضي قدماً إلى الصحراء، فلا يلبث إلا كما يلبث الطيف، أو تقيم سحابة الصيف، فهداهم حسن تفكيرهم بعد توفيق الله لهم، وألجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يَتَوَقَّون به زحف السيول

الهادر ، ويحجزونها في أرضهم لكي ينتفعوا بها ، وهُدُوا إلى طريقة السدود والحواجز يقيمونها بين الأودية ، وذلك دليل على قوة همّتهم ، وشدّة عزيمتهم ، وقد كثرت تلك السدود ، وتعددت الحواجز ، ولكن سدّ مأرب كان أقواها وأمتنها ، وأجداها وأنفعها ، فقد كان سدّاً عريضاً منيعاً حصيناً ، قوياً مكيناً ، وجعلوا له عيوناً تُفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة ، فإذا بالوادي المقفر يتحول إلى حديقة غناء ، وإذا بالوهاد الشاحبة بساطاً أخضر ، وإذا بالبلدة القاحلة تكتسي حلّة خضراء، وترتدي ثوباً قشيباً . منظرٌ يسرُّ العين ، ويبهج القلب ، ويمتع الفؤاد، حدائق غناء ، وزروع خضراء ، وماء متدفق ، وعيون تجري ، وقطوف دانية ، وثمار يانعة ، وفواكه مختلفة ، وأشجار وأزهار ، وغصون وورود ، ورياحين وياسمين ، وشيحٌ وكادي ، متعةٌ للذوق ، ومتعة للقلب ، ومتعة للنظر ، ومتعة للفكر ، ومتعة للسمع بأصوات الطيور المغرّدة ، والبلابل الصداحة .

تسير المرأة في وسط هذه الحدائق المبهجة ، وبين الأشجار الملتفَّة ، وعلى حافات القنوات التي تنساب منها المياه العذبة ، تسير المرأة حاملة مكتلها فوق رأسها ، فلا تمضي مسافة يسيرة حتى يكون المكتل قد امتلأ من الثمر المتساقط الذي لا يكلف حتى القطاف .

وهكذا اتسعت النعمة ، وعَظُمت المنة ، وفاض الخير ، وغنت بلابل السعد ، وخيمت أيام السرور ، وتدفق العطاء ، وساد الرخاء ، واتسع الغنى ، وعمّ الهنا ، وطابت الأرض ، وحسن المقام ، واعتدل الهواء ،

وصحّ المزاج ، ولم يبق في الحياة شيء يعكِّر الصفو ، أو يكدر الأنس ، ولقد خلت أرضهم من كل منغص حتى من الذباب والبعوض ، والبراغيث والحشرات والهوام . كل ذلك عنايةٌ من الباري، وجودٌ من الكريم ، وعطاءٌ من العظيم ، وهبةٌ من المنعم ، كلوا من رزق ربكم ، تمتعوا بنعمه ، اهنؤوا بعطائه ، التذوا بأرزاقه ، والمطلوب منكم هو شكره على النعمة ، وإفراده بالعبادة ، والإحسان معه بالطاعة ،كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، فالمقام طيب ، والبلدة طيبة ، والحياة طيبة ، والثمار طيبة ، والهواء طيب ، وأطيبُ من كل ذلك ، وأعظم مما هنالك أن الرب طيبٌ غفور ، فاجتمع لهم طِيْبٌ في الأرض ، وطِيْبٌ في السماء ، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران فهل بعد هذا الهناء من هناء ؟. وهل بعد هذه النعمة من نعمة؟ فهل عرفوها؟ وهل قدروها؟ ، وهل شكروها؟ .

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ – نعوذ بالله من الخسران ، وقلة التوفيق ، وضيق الأفق وغلبة الهوى ، ومحق البركة – أهكذا يكون الجزاء؟ ، أهكذا تشكر النعمة؟ ، أهكذا يقابل الإحسان؟ ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ ، يَخْلق ويُعْبَد غَيْرُه ، يُعْطي ويُشكَر غيره، يَرْزق ويُتجه إلى سواه .

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ .. انظر إلى عظمة القرآن وإعجازه وإيجازه ، أوجز معاصيهم كلَّها ، وأخبر عن جرائمهم جميعها بهذه الكلمة . إن إعراضهم الذي استحقوا به العقوبة الصارمة ، والجزاء المخيف لم يكن شيئاً سهلاً ، أو أمراً هيّناً . ولا شك أن أعظم ذلك الإعراض هو الشرك بالله

تعالى ، والمعاندة لشرعه ، والتخلي عن هدايته ، ومخالفة رسله أو محاربة أوليائه ، والتنكر لنعمه ، والكفران لجوده ، وقد ترك الإعراض مبهماً دون تفسير لحقيقته ، وبيان لأنواعه لتهويل الأمر ، وإظهار فظاعته والإشارة إلى شناعته ، ولك أن تتصور الإعراض في جميع أشكاله ، وشتّى أنواعه .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ يالله ما أسرع الانتقام ، وما أشد العقوبة ، وما أعظم البلية ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا ﴾ كأنه لم يكن بين الإعراض وإرسال العذاب إلا غمضة عين ، ولا شك أنهم قد عاشوا مدة طويلة في النعيم ، وأعطوا مهلة للتوبة ، ولكن ساعات الهناء محدودة ، ولحظات السرور معدودة ، وزاد من قلتها ومحق بركتها ذلك الإعراض المقيت ، فأرسلنا عليهم سيل العرم ؛ دمّرهم بالذي كان مصدراً لسعادتهم ، وسبباً لسرورهم ، بالماء الذي شربوا من زلاله ، واستقوا من ينابيعه ، واستمتعوا بخريره ، واستأنسوا لهديره ، سقوا به زروعهم ، وارتوت منه أراضيهم وأفئدتهم وبهائمهم ، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] هذا الماء الذي سعدوا به هو الذي دمّرهم الله به ، فأدخل به الرعب إلى قلوبهم ، وطاشت لهوله عقولهم ، ودُمِّرت به منازلهم ، واجتُثت به مزارعهم ، وقُصِفت به ممتلكاتهم ، وقُوِّضت به أبنيتهم ، ونسفت به سدودهم ، غرق الزرع ، وهلكَ الضرع ، وإذا بالواد الأخضر يمسي وهو مقفر ، وإذا بالحدائق الغناء

صحاري جرداء ، وإذا بالثمار اليانعة يحل مكانها الخمط والأثل نبات مرٌّ بشع ، والسدر الذي يمكن أن يؤكل لم يوجد منه إلا قليل ، وإذا بالطيور الصداحة ، والبلابل الغناء تغادر ليحل محلها البوم والغربان ، تصيح فوق البيوت المهدمة ، والزروع المدمِّرة ، وإذا بالأسر تمزّق ، والأهل يُشرّدون ، والأحبة يتفرّقون وإذا بالبلاد تُهجر ، والأوطان تُغادر بقلوب محترقة ، وأعين دامعة ، ونفوس متحسرة ، ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ .

وهكذا التنويع في أخذ الظالمين ، والتشكيل في عقوبة المجرمين ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴾ . [سبأ : ١٨]

هذه مواصلة للحديث ، وعودة إلى الخبر عن جود الله عليهم ونعمه لهم ، فقد كانوا في عيش رغيد ، ونعمة عظيمة ، وبلاد طيبة وأماكن آمنة ، وقرىً متواصلة ، ومدائن متقاربة ، مع وفرة في الأنهار وكثرة في الأشجار ، وقد كانوا يسافرون من بلادهم إلى الشام ، وإلى بلدان كثيرة ، وهم في أمن وأمان ، وأنس وسرور ، وعطاءٍ ونماء لا يحتاجون إلى حملٍ للزاد ، ولا تزود بالماء ، فحيثما نزلوا وجدوا ماءً زلالاً ، وثمراً يانعاً ، ويقيلون في قرية ، ويبيتون في الأخرى ، لا يشعرون بتعب ، ولا يعتريهم

نصب، ولا يُعانون من وصب ، فهم يسيرون في قرى واضحة ظاهرة آمنة فبطروا النعمة ، وجحدوا المنّة فقالوا ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا ، دعوا على أنفسهم بطول المسافات ، وتباعد الأسفار ، بطراً منهم وحسداً لأنفسهم ، وملالاً من الرخاء ، وضيقاً بعيش الهناء، فكانت العقوبة الصارمة ، والانتقام المقيت ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

أحاديث يروي الناس أخبارهم ، ويحكون قصصهم ، ويتندرون بفعلهم ، أصبحوا حديث المجالس ، وكلام الناس في أنديتهم ، ومجالس سمرهم .

بينا ترى الإنسان فيها مخبراً
ألفيته خبراً من الأخبار

﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ ﴾ .. ما أعظمها من كلمة ، وما أجلها من عبارة ، تحمل في طياتها أقسى أنواع العذاب ، وأشد ألوان النكال ، مهما فتشت في اللغة ، ونقبت في المعاجم فلن تجد كلمة أجمع ولا أبدع من هذه الكلمة فهذه نهاية الكفران ، وهذه عاقبة الجحود ، فكأنهم ورقة سحبت من سجل التاريخ ثم مزقت وقُطّعت ورمي بها في سلة المهملات ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨] ، تمزيقٌ أُسَري ، وتمزيقٌ في المكان ، وتمزيقٌ في الزمان ، وتمزيقٌ في المشاعر ، فهل من مُدَّكر ، وهل من معتبر .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

شعيب عليه السلام

كان أهل مدين عرباً يسكنون أرض معان من أطراف الشام ، وكانت هذه الأرض مؤمنةً صالحة ، فتغير بها الحال ، ومرت بها السنون ، وطال بها الأمد ، حتى ظهر الفساد في أهلها ، وانتشر الشرك في جبلها وسهلها وأظلمت القلوب ، واسودت النفوس ، وتدنس الناس بدنس المعاصي ، وارتموا في أوحال الذنوب والشهوات ، فلما جلّ الخطب ، وفدح الأمر ، وعظُم الفعل ، أرسل الله إليهم شعيباً عليه السلام ، وآزره بالمعجزات ، وأيّده بالبينات ، فدعاهم أول ما دعاهم إلى تصفية العقيدة ، وتحقيق التوحيد ، وإعلان العبودية لله وحده ، ثم حذرهم من الذنوب التي تواطؤوا عليها ، ونهاهم عن المعاصي التي درجوا عليها ، ألفتها نفوسُهم ، وارتضتها قلوبهم ، حتى أصبحت جزءاً من حياتهم ، وشيئاً من كيانهم ، بل أصبح إنكارُها هو المنكر ، وهي ذنوب مؤذنةٌ بفساد ، ومعلنة بدمار ، ذكّرهم بنعم الله عليهم ، وحدثهم عن جود المولى لهم ، وانطلق في مسيرته الدعوية ، والقيام بواجبه الإصلاحي في يُسر وتَرفُّق ، ولين وتلطُّف ،بالكلمة الصادقة والموعظة الحسنة . . ﴿ . . **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

[الأعراف : ٨٦]

وهنا تتجلى أعظم المنكرات التي كان يقع فيها قوم شعيب ، وهي :

١ – الشرك بالله تعالى .

٢ – عدم إيفاء الكيل والميزان ، فقد كانوا إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وهذا من الذنوب العظيمة التي توعد الله أصحابها بالويل والهلاك .

٣ – بخس الناس أشياءهم ، وانظر إلى روعة كلمة أشياء ، فليس شرطاً أن يكون ذلك البخس للحقوق المادية فقط ، بل تتنوع مظاهر بخس الناس أشياءهم وهضم حقوقهم سواء كان ذلك في الأمور المادية أو في الأمور المعنوية .

٤ – تعمد الفساد في الأرض بعد إصلاحها ، وتعمد إفساد أهلها ، وإبعادهم عن دينهم، وجرهم إلى الرذيلة ، ودعوتهم إلى الخطيئة.

٥ – القعود في وجه الدعوة ، والحرب على أنصارها وأتباعهم ، والحملة الجادة للصد عن سبيل الله ، والسلوك بالناس والحياة الطريق الأعوج والبعد عن الطريق المستقيم .

فقد جمعوا أسوأ المعاصي ، وأخطر الآثام ، وأقبح الذنوب : الشرك بالله ، والصد عن سبيله ، وأكل حقوق عباد الله ، وبخس الناس أشياءهم .

وقد استخدم شعيب عليه السلام عدداً من الوسائل لدعوتهم والتأثير في نفوسهم وجذب قلوبهم للحق ، كل ذلك بنفس مؤمنة، وقلب مشفق، وفؤاد صادق ، ونُصْحٍ مُتَرَفِّق ، فقد ذكَّرهم أولاً بالبينة الواضحة من ربه ، والمعجزة الصادقة على نبوته ، ثم تلطف في ندائهم ، وبين لهم أنه واحد منهم ، وأن الرائد لا يكذب أهله ، وابن العشيرة المخلص لا يخون عشيرته فقال : « يا قوم » – وقد تكرر استخدام شعيب لهذه الكلمة لتكون أوقع في النفوس ، وأدعى للقبول – ثم ذكَّرهم بوحدانية الله تعالى ، وأنه المتفرد بالعبودية ، وأنه الواحد الأحد الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده دون شريك .

ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا قليلاً مستضعفين لا قوة لهم ولا منعة ولا حول ولا طول ، فكثرهم وقواهم وآزرهم ونصرهم ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ** ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ثم ذكرهم بمصارع الأمم السابقة قبلهم ، وحذرهم أن يصيبهم ما أصابهم ، ﴿ **وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود : ٨٩] .

ثم أمرهم بالاستغفار ، ودعاهم إلى التوبة، وبين لهم أن الله تعالى رحيم ودود وسعت رحمته كل شيء ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾ [هود : ٩٠] ، فهل نفعت فيهم الدعوة ، وهل أثمرت فيهم الموعظة ، وهل أَجْدَت فيهم النصيحة .

﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ**

مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ..﴾ [الاعراف : ٨٨] هكذا قابلوا دعوة الداعي الناصح ، والرسول الصادق ، وأول من يتبنى الوقوف في وجه الحق دائماً هم المستكبرون والمتغطرسون في كبريائهم ومناصبهم وأموالهم وعشائرهم، ثم يسير الناعقون والمصفقون والمنتفعون والغوغائيون في ركابهم ، وقفوا في وجه شعيب ، واستهزؤوا بقوله ، وسخروا منه ، وتهكموا به و ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود : ٨٧] ، هل دعوتك وعبادتك وصلاتك ستكون مهيمنة على أعمالنا وسلوكياتنا ، وتنهانا أن نعامل الناس كما نحب ونشتهي ، وندع ما درجنا عليه ونشأنا فيه وكثرت أموالنا من طريقه؟! .

وهكذا نرى إنكارهم لهيمنة الدين على حياتهم ، وهو القصور الجاهلي المقيت الذي يتردد في كل زمان ومكان ، ها أنت تسمع اليوم كثيراً من هذه الدعوات التي إن وافقت على الدين والعبادة فإنها تحصرها في المسجد فقط ، فيقولون ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام ولحرية المرأة ولباسها؟ ما للإسلام والجنس؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام والعري في الشواطيء والرقص المختلط في النوادي؟ ما للإسلام والقنوات الفضائية وتلبية جميع الرغبات؟ وما للإسلام والمعاملات الاقتصادية والربوية؟ ما للإسلام والسياسة؟ وهكذا يحكم على الإسلام بالسجن في زنزانة انفرادية لا يسمح له بمغادرتها ، كم يتوهم كثير من الجاهليين والعلمانيين والمنافقين ، وهكذا يقف هؤلاء

المردة في وجه الحق ، وطريق الخير ، يصدون عنه ، ويحاربون دعاته ، ويخذلون أتباعه ، يهددونهم بالقتل ، ويخوفونهم بالطرد ، ويعدونهم بالأذى .

وقد تحمل شعيب جفوة قومه ، وصبر على أذاهم ، وغض الطرف عن سخريتهم واستهزائهم ، وتلطَّف في جدالهم ، وحاول استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرفق ، وبين لهم أن ظهور البينة له من ربه ، وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق في طريقهم ، والاندفاع في غيِّهم ، وتمنعانه من التفريط في وحي الله والتهاون في تكاليفه ، وأنه لن ينهى عن العمل بهذه الدعوة ، ولن يكرههم على اتباعه ، ولن يأمرهم إلا بشيء رضيه لنفسه ، ولن يفعل ما ينهاهم عنه ، وهو لا يطلب منهم أجراً على دعوته ، ولا جزاءً على هديه لهم وإرشاده إياهم ، بل يريد الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

فانظر إلى روعة الكلام ، وجمال الحديث ، وهو يعلم العقيدة والتوحيد والأدب مع الله تعالى ، ووجوب اللجوء إليه في ثنايا كلامه معهم ، ونقاشه لهم ، فيلمح لهم إلى أن الله تعالى هو الذي رزقهم رزقاً حسناً ، وكان الواجب أن يشكروه ، ويلفت انتباههم إلى أن التوفيق منحة ربانية من الله جل وعلا ، وأن التوكل الحق هو على الله تعالى ،

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] وأن الإنابة والتوبة يجب أن يبادر بها الإنسان إلى ربه جل وعلا .

فلما وعظهم وأحسن موعظتهم ، وجادلهم فأحسن جدالهم ، وأظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبين لهم عاقبة ظلمهم ، وخوفهم من بأس الله تعالى وعذابه ، وأيّد أقواله بالحجة البالغة والآيات البينة والبرهان الساطع، لجؤوا إلى المراوغة في القول ، ومدافعة الحجة بالشتم ، ورد البينة بالسباب ، والتمرد على الموعظة بالمغالطة ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ، ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا ، ولا منفذ إلى عقولنا ، وأنت مستضعف ذليل ، ولم يمنعنا من إلحاق الأذى بك إلا مكان عشيرتك ، وحرمةُ قبيلتك ، فلما كشَّر الباطل عن أنيابه ، وزاد الأمر عن حدّه ، لم يطأطئ شعيب رأسه أمام عزتهم ، ولم يضعف أمام قوتهم ، بل هب يدفع باطلهم بالحق ، ويمحق زورهم بالبينة ، وتملّكته العزة بنصرة الله ، والثقة بمعيته لأوليائه ، وصرخ في وجوههم غاضباً من قولهم المقيت ، وردّهم السفيه ، وبين لهم أن رهطه وقبيلته ليسوا أرفع قدراً ، ولا أشد قوة ، ولا أمنع جانباً من الله جل وعلا ، وأنهم لو كانوا يعقلون ما جعلوا القبيلة والعشيرة أعزَّ عندهم وأولى بالمراعاة من الله جل وعلا ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [هود : ٩٢] .

ولم يُضعف تهديدهم قوَّته ، ولم يفلَّ وعيدُهم عزمه ، بل تحدّاهم ودعاهم إلى أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه ، وأعلن لهم

أنه لن يألو جهداً في سبيل دعوته ، فثقته بالله أكيدة ، وإيمانه راسخ ، ويقينه جازم ، وموعود الله له صادق .

فاستمر القوم في إصرارهم على الكفر ، وتماديهم في الضلال ، وسخريتهم بشعيب وأتباعه ، وتكذيبهم لهم ، وتهديدهم بالأذى والرجم والطرد من البلاد ، وتحديهم لله ورسوله ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

[الشعراء : ١٨٧]

فلما أن ضاقت السبل ، وبارت الحيل ، وعظم إصرارهم ، وكبر جحودهم ، وتطاولوا على نبيهم ، وسخروا بأمر ربهم ، حلت العقوبة، وجاءت النقمة ، فابتلاهم بالحر الشديد ، فكان لا يروي ظمأهم ماء ، ولا تمنعهم ظلال ، ولا تقيهم المنازل ، ففروا هاربين من الحرّ ، وخرجوا مسرعين من الجحيم ، ولم يعلموا أنهم إنما فرّوا إلى حتفهم ، وخرجوا إلى هلاكهم ، فقد تجلّت لهم سحابة في السماء فظنوها واقية من الشمس ، دافعة للحر ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، ويستروحوا فيئها ، ويستبشروا بغيثها الهنيء المريء ، حتى إذا تكامل عددهم ، وتألف جمعهم ، رمتهم بشرر وشهب ، وأمطرتهم بعذاب وسخط ، وجاءتهم صيحة من السماء ، وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، فاشتد خوفهم وعظم قلقهم ، وطاشت عقولهم ، وذُعرت نفوسهم ، وخَفَقَتْ قلوبهم ، وخارت أقدامهم ، جاءتهم الصيحة ، وأخذتهم الرجفة ، علا صياحهم ، وضج بكاؤهم ، وادْلهمَّ خطبُهُم ، وارتفع نحيبهم ، فَدُمِّرت أجسادهم ،

وزَهقت أرواحهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الاعراف : ٧٨] ، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾.

[الاعراف : ٩٢]

فلما رأى شعيب ما حل بقومه أعرض عنهم ، وتنحى جانباً وقد أثقله الحزن على ما أصابهم ، وتملكه الهم لما حل بهم ، ولكنه تذكر كفرهم وعنادهم ، وظلمهم وعدوانهم ، وتسفيههم واستهزاءهم ، ووقوفهم في وجه الحق وطريق الخير ، فخفف ذلك من وجده ، ولطّف من أساه ، ثم تولى عنهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الاعراف : ٩٣] .

يونس عليه السلام

وقبل أن نغادر ساحل البحر أرى من الواجب علينا أن نتلبث قليلاً مع بعض الأحداث العظام ، والأخبار الجسام ، والقصص الخالدة والمواقف الرائدة التي لنا مع البحر . ومن أعظم ذلك قصةُ موسى عليه السلام ، وقصةُ يونس عليه السلام ، ولطول قصة موسى عليه السلام من جهة ، ولشهرتها من جهة أخرى نرجئ الحديث عنها إلى وقت آخر ، ونجعل حديثنا اليوم عن قصة نبي الله يونس عليه السلام المعروف بذي النون . والنون هو الحوت ، وذو النون بمعنى صاحب الحوت ، فهيا بنا ننطلق في سفينة من سفن الاعتبار ، وباخرة من بواخر العظة ، نمخر بها عباب التاريخ السحيق العميق الهائل ، لنحصل على بعض اللآلي والياقوت والمرجان من قوله تعالى : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ [هود : ٤١].

وردت قصة يونس عليه السلام في ثلاثة مواطن من كتاب الله عز وجل . في سورة الأنبياء ، وفي سورة الصافات ، وفي سورة القلم ، وقد سميت سورة كاملة باسمه ، وورد فيها الإشارة إلى إيمان قومه ، وقد وردت قصة يونس عليه السلام بإيجاز في سورة الأنبياء ثم وردت بنوع من التفصيل في سورة الصافات ، ثم وردت بإيجاز في سورة القلم ، وفي كل مرة وردت فيها القصة ، تأتيك في ثوب جديد ، ولون فريد ، وأسلوب آخر ،

وعبارة مختلفة ، وتجد فيها ما لا تجد في غيرها ، وهذه عظمة القرآن ومميزاته ، وروعة أساليبه ، وتفرد بيانه .

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وقال تعالى في سورة الصافات ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات : ١٤٧].

وقال تعالى في سورة القلم : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم : ٥٠].

ولعل هنالك سراً أو تناسباً بين مطلع هذه السورة ﴿ن﴾ وبين ورود قصة ذي النون ، ولنبدأ الآن في ذكر موجز للقصة ، فإن في قصصهم عبرة .

موجز القصة : أن الله تعالى بعث يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى»، وهي قرية من أرض الموصل على ضفة نهر دجلة ، كانت تعيش تحت ظلال الأصنام ، وبين حنادس الجهل والشرك ، فأشعل يونس عليه السلام قبس

الإيمان ، وقدح زند الهداية ، وحمل علم التوحيد ، ودعاهم إلى الله عز وجل فثاروا في وجهه ، وتمردوا على دعوته ، ورفضوا هدايته ، ولم يجد منهم إلا الجحود والإنكار ، والبغي والإصرار . فبعد أن يئس منهم ، ولم تُجدِ دعوتهم باللطف واللين ، والرفق والإقناع ، والمجادلة بالتي هي أحسن، أنذرهم عذاباً واقعاً ، وبلاءً نازلاً ، وهلاكاً قريباً ، فقالوا له : ما نحن بمستجيبين لدعوتك ، ولا خائفين من وعيدك ، فلم يطق يونس صبراً ، وضاق بهم ذرعاً ، ويقال عنه عليه السلام إنه كان في صدره ضيق فتضجر من موقفهم، وقطع الرجاء فيهم ، ويئس من إيمانهم ، فخرج من بينهم مغاضباً لهم، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل ، فألقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً ضيق الصدر ، حرج النفس ، مكدر الخاطر ، فغادرهم ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ، ولم يتحمل أذاهم .

قال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ، ومعنى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ : أي نضيق عليه .

يروى أن ابن عباس رضي الله عنه دخل على معاوية فقال له معاوية : «لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك» ، قال : «وما هي؟» ، فقرأ معاوية قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال : «أو يظن نبيُّ الله أن الله لا يقدر عليه؟» قال ابن عباس : «هذا من القدْر لا من القدرة» يعني التضييق عليه .

ولم يكن يونس يبتعد عن القرية قليلاً حتى وافت أهلها نذرُ العذاب واقتربت منهم طلائع الهلاك ؛ فإذا بالسماء تظلم ، والجو يغبر من حولهم ، وإذا بألوانهم تتغير ، ووجوههم تتشوه ، فدب إليهم الذعر ، وداخلهم القلق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذاره صدق ، وأن العذاب واقع بهم ، وأنه سيصيبهم مثل ما كانوا قد سمعوا عن عاد وثمود وقوم نوح ، فوقع في نفوسهم أن يلجؤوا إلى الله ، وأن يعتصموا بإله يونس ويؤمنوا به ، ويتوبوا إليه ويستغفروه ، فخرجوا إلى شعاف الجبال وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين ، باكين متوسلين . وفرّقوا بين الأمهات وأطفالهن ، وبين الإبل وفصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم ضجروا إلى الله بالبكاء ؛ وارتفع العويل ، وعظم الضجيج ؛ صرخ الأطفال ، صاحت الأمهات ، ورغت الإبل ، وخارت البقر ، وثغت الغنم ، وكل ذلك أمام من؟ وبين يدي من؟ ويدعون من؟ ويرجون من؟ وينطرحون لمن؟ ويبكون لمن؟ ويتذللون لمن ؟!! لله الواحد القهار ، لله الراحم الغفار، فبسط الله عليهم جناح الرحمة ورفع عنهم سحائب النقمة ، وتقبل منهم التوبة والإنابة ، لأنهم أخلصوا في توبتهم وصدقوا في إيمانهم ، قال سبحانه : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ فعادوا إلى ديارهم آمنين ، وقلوبهم تتطلع إلى يونس ، ويودون لو أنه يعود إليهم ، فيعرفوا قدره ، ويحترموا رأيه ، ويتبعوا نهجه ، فأين هو يونس يا ترى؟ وماذا كان من أمره؟ .

يونس قاده غضبه إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة مشحونة ، فركب فيها ، وأنزلوه بينهم منزلاً كريما لما رأوا على وجهه من علامات الكرم والطهر والصفاء ، فلما ابتعدوا عن الشاطىء ، هاجت الأمواج ، وهبت الأعاصير ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وانخلعت القوائم، وأيقنوا بالهلاك ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا من الركاب ، وأنه لا بد من إلقاء أحدهم على الأقل ، ليسلم البقية ، فساهموا فجاء السهم على يونس ، ولكنهم ضنّوا به على البحر تكريماً لشأنه ، ولما رأوا من مكانه فعادوا للمساهمة فعاد السهم على يونس ، وكذلك المرة الثالثة.

فألقى يونس بنفسه في اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ ، أي مستحق للوم لأنه تعجل عليه السلام ، وترك قومه قبل أن يأذن له الله تعالى . فأوحى الله إلى الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك يكون له سجناً . وعندما أحس يونس بالضيق في بطن الحوت ، في تلك الظلمات الهائلة ، ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وضاق صدره ، واعتلج همه، وعظم كربه ، فزع إلى الله تعالى : إلى غياث الملهوف ، وملجأ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وانطلق لسانه بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ وتأتي الاستجابة السريعة ، وانظر إلى التعقيب بالفاء ، حيث قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

فأوحى الله إلى الحوت ، أن يلقي يونس بالعراء فخرج على الشاطىء سقيماً هزيلاً مدنفاً عليلاً ، فتلقته عناية الله ، وحفت به رحمته . فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهو نبات لا ساق له وله ورق عريض . ودبت إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة ، فعاد إلى قومه ، ورجع إلى بلده ، فإذا به يجدهم في أحسن حال ؛ هجروا الأصنام ، وتركوا الأوثان ، وأقبلوا على الرحمن ، وآمنوا فنفعهم الإيمان . اللهم ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان ، وصل اللهم وسلم على يونس وعلى إخوانه من أنبياء الرحمن .

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال : «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» أقبلت الدعوة تحف بالعرش ، قالت الملائكة : «يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة» ، فقال الله تعالى : «أما تعرفون ذلك؟» ، قالوا : «يا رب ومن هو؟» ، قال عز وجل : «عبدي يونس» ، قالوا : «عبدك يونس الذي لا يزال يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟» ، قالوا : «يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء» ، قال «بلى» ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء .

وروي في حديث آخر ، أنه ﷺ قال «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى» ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ ، قال : «هي ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**

فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ » .

بعض الدروس المستفادة :

١ – أدب الأنبياء مع الله عز وجل ، فانظر إلى روعة هذا الدعاء ، وجمال هذا النداء ، أعلن أولاً توحيده لله عز وجل ، وأنه الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو ؛ فلا ملجأ إلا بالله ولا مفر منه إلا إليه ، ولا اعتصام إلا به ، ولا توكل إلا عليه ، ولا رجاء إلا فيه عز وجل ، فتقدم بهذه البطاقة العطرة من الثناء الأجل بين يدي دعوته ، ثم سبح الله وأثنى عليه ونزهه ، ثم اعترف بذنبه وتقصيره وفقره إلى عفو الله عز وجل ولطفه ورحمته . وهكذا أدب الأنبياء عليهم السلام ولا يسمح المجال هنا للتفصيل في هذا الجانب ، وإلا لرأيت العجب العجاب من أدبهم مع الله ، وحسن مناجاتهم له ، انظر إلى أيوب قبل ذي النون بعد ذلك الكرب الشديد ، والعناء الجسيم ماذا قال ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ ، ولو تأملت في أحاديث النبي ﷺ وأدبه مع ربه في دعائه ومناجاته لرأيت ما يبهج القلب ، ويمتع الفؤاد ، ويسلي الخاطر « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني » [رواه الترمذي] ، انظر مثلاً إلى سيد الاستغفار « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي . فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [رواه البخاري] ، ما أروعه من

كلام ، ولذلك استحق من قاله ثم مات أن يدخل الجنة .

٢ – وجوب الصبر على الدعوة إلى الله تعالى والتحمل في سبيلها ، وعدم استعجال النتائج ، وعدم اليأس من صلاح الناس .

٣ – ينبغي أن يكون الداعية منشرح الصدر واسع الخاطر حتى يستطيع القيام بمهمته .

٤ – لطف الله تعالى بعباده المخلصين وحفظه لهم واستجابته لهم إذا تابوا إليه وأنابوا .

٥ – أن الداعية قد يصاب بالمصائب ، وتلحق به النكبات ليكون ذلك تربيةً له وصقلاً لفؤاده ، وتطهيراً لنفسه .

٦ – أن العبد المؤمن الذي عرف الله تعالى في الرخاء يعرفه الله في الشدة ويلهمه رشده ، ويدله على الفلاح والنجاح .

٧ – أن الداعية الصادق يشق عليه أن يكذبه الناس ويتهموه ، ولكن ذلك جزء من تكاليف الرسالة ، وتبِعات الدعوة ، فعليه أن يصبر له .

٨ – عدم القنوط من رحمة الله أو اليأس من روحه ، فإن الأمور إذا ادلهمَّت ، والحياة إذا تأزمت ، والأبواب إذا أغلقت ، جاء من الله الفرج ، وحدث النصر ، ونُفِّس الكرب .

٩ – إن أفضل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه وأجمل ما يستدرّ به رحمته وعفوه هو إشراب القلب معنى الوحدانية ، وإعمار النفس بحقيقة الألوهية « لا إله إلا أنت سبحانك » .

هنيئاً لك أبا عمرو

هذا الدين الذي نتفيأ ظلاله ، وننعم بروعته ، ونسعد بالانتساب إليه قد هيأ الله له رجالاً عظماء ، عرفوا منزلته ، وحفظوا أمانته ، ورعوه فأحسنوا رعايته . قدموا في سبيله رقابهم ، وأسالوا دماءَهم ، وبذلوا أموالهم ، وهجروا أوطانهم ؛ صبروا على الأذى ، وتحملوا أصناف التعذيب ، صدقوا الله فصدقهم ، واستنصروه فنصرهم ، واستعانوه فأعانهم ، طابت سرائرهم ، وزكت ضمائرهم ، وحسنت أعمالهم ، وعذبت أفعالهم ؛ كان لهم في نبيهم قدوة ، واتخذوا منه أسوة . رجال لم يشهد لهم التاريخ مثيلا ، ولم تعرف لهم الدنيا شبيها ، إيمان وتقى ، خشوع وخضوع ، صدق وطهارة ، عفة ونقاء ، تألق وصفاء ، برّ وإخاء ، جهاد وتضحية .

قال سبحانه : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٢٣].

نريد أن نقف مع بعض أولئك العظماء لنتأمل سيرهم ، ونرى عظمتهم ، ونتلمس أخبارهم ؛ فهم المثال الذي يحتذى ، والأنموذج الذي به يقتدى . نقف مع بعضهم لنعرف قيمة القدوة الحسنة في زمن

تضاءلت فيه القدوات الشامخة ، وغابت عن الأعين النماذج العظيمة ، والأمثلة الرائعة ، والمواقف النبيلة . كثير من الناس أصبحت هممهم باردة وعزائمهم خامدة ، وقدواتهم تافهة . أصبح كثير من الهابطين ، وعدد من التافهين ، قدوات تُحتذى ، ونماذج تحترم ، وشخصيات تحب ، يُنظر إليهم بإكبار ، ويُلتفت إليهم بإعجاب ، وتُؤخذ أخبارهم باهتمام ، يقلدون في حركاتهم ، ويمجدون في أفعالهم ، ويعتنى بأحوالهم وأخبارهم « والمرء مع من أحب » [متفق عليه] ، فأين الأجيال المؤمنة عن ذلك الجيل الفريد ، وأين الشبيبة المسلمة عن تلك القدوات الرائعة التي ملأت الأرض طهراً وصفاءً ، وعدلاً وإيماناً ، وحقاً ويقيناً .

وقوفنا اليوم مع أحد أصحابه ﷺ الذين عظمت مواقفهم ، وتألقت كلماتهم ، وسطرت تضحياتهم ، إنه سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه ، وقبل أن ندلف للحديث عن سعد ، ألفت انتباهكم إلى أن سعداً له حوالي عشرة أسطر من الكلمات التي أصبحت تاجاً على هامة التاريخ ، ودرراً على جبين الزمان ، وهي والله تعدل مئات من المجلدات ، وآلافاً من الكلمات .

أسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه في العام الواحد والثلاثين من عمره على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وتوفي وعمره سبع وثلاثون سنة ، مات شهيداً رضي الله عنه في زمن قصير عاشه منذ إسلامه إلى وفاته . ولكنها سنوات عظيمة مليئة بالتضحيات الرائعة ، والمواقف الناصعة ، حيث كان لإسلامه أعظم الأثر على الإسلام والمسلمين .

كان سعد رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أَعْيَن ، حسن اللحية ، بدين الجسم . سمع القرآن من مصعب بن عمير فَرَقّت له نفسه ، ولان له فؤاده ، وانشرح له صدره ، فأعلن إسلامه ، وصدع بإيمانه ثم ذهب إلى قومه فقال : « يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ » ، قالوا : سيدنا فضلا وأيمننا نقيبة ، قال : « فإن كلامكم عليّ حرام رجالكم ونساؤكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله » ، فما بقي رجل ولا امرأة في دار بني عبد الأشهل إلا وأسلموا . [السيرة النبوية لابن هشام] ، وحينما قدم ﷺ المدينة مهاجراً كانت بيوت بني عبد الأشهل مشرعة أبوابها لاستقباله .

وتجيء غزوة بدر ، ويجمع النبي ﷺ أصحابه ليشاورهم في الأمر ويممّ وجهه شطر الأنصار يريد أن يسمع رأيهم ، ويقول : « أشيروا عليّ أيها الناس » ، فيفهم سعد بن معاذ قصد النبي ﷺ ، وأنه يريد أن يطمئن إلى موقف الأنصار ، ورأيهم في الجهاد ، فيثب وثبة الأسد ثم يقول :

« يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك : فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً . إنا لَصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » [السيرة النبوية لابن هشام] ، فسر رسول الله

ﷺ لقوله ، ونشَّطه ذلك ، وتهلل وجهه فرحاً بهذا الموقف العظيم .

وتأتي غزوة أحد ، فيجاهد فيها سعد بن معاذ جهاد الأبطال ، ويناضل نضال العظماء ، ويجعل صدره ونحره دون رسول الله ﷺ ويدافع عنه في شجاعة واستبسال .

ثم تأتي غزوة الخندق ، وهي غزوة بعيدة الأثر ، عظيمة الشأن ، امتحن فيها المسلمون امتحاناً شديداً ، وزلزلوا زلزالاً أكيداً . فقد تكالبت اليهود وغطفان وقريش ، وأعدوا العدة لاستئصال شأفة النبي ﷺ وأصحابه وإبادتهم جميعاً . وقد اجتمع فيها ما يربو على عشرة آلاف مقاتل ، وكانت هذه الغزوة بتحريض وتحريش من اليهود الفجرة الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد واتفاق ، فنقضوا الميثاق، وخانوا العهد ، وذلك ديدنهم على مر العصور ؛ لا يحفظون عهداً ، ولا يصدقون وداً ، ولا يحترمون موثقاً .

وقد أرسل إليهم المصطفى ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليتأكدا من صحة الموقف فوجداهم على شر مما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : «من رسول الله؟! ، لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد» وهذا ليس بمستغرب من الخونَة الفجَرَة أصحاب الغدر والمكر على مرّ التاريخ ، قال عز وجل : ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ .

[الرعد : ٢٥]

فاشتد الكرب على النبي ﷺ وعلى الصحابة ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الاحزاب : ١٠].

ولقد عزّ على النبي ﷺ أن يُعَرِّض أهل المدينة لهذا الغزو المدمِّر، والحصار المنهك. ففاوض زعماء غطفان على أن يَنْفُضُوا أيديهم من هذه الحرب ويعطيهم لقاء ذلك ثلث ثمار المدينة، ورضي قادة غطفان بذلك وهم يمثلون نصف الجيش تقريباً. فأراد النبي ﷺ أن يسمع رأي أصحابه ومشورتهم في هذا الأمر، وكان يهمه أن يسمع رأي سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فتقدما إلى النبي ﷺ في إجلال وإكبار، وحياءٍ وأدب فقالا: «يا رسول الله: أهذا رأي تختاره أم وحيٌ أمرك الله به؟»، قال ﷺ: «بل أمر أختاره لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مّا»، فقال سعد بن معاذ: «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا!!، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» فعدل رسول الله ﷺ عن رأيه

وشهدت المدينة حصاراً رهيباً وموقفاً شديداً، فخرج سعد بن معاذ حاملاً سيفه مرتجزاً منشداً يمشي يهز الأرض هزاً، فَرُمِي بسهم وبيل قطع

منه الأكحل ، وتفجر الدم من وريده – والأكحل هو عرق وسط الذراع وتسميه العرب نهر البدن ، وإذا قطع يؤدي إلى الموت غالباً – فابتهل سعد إلى ربه قائلاً : اللهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبُّ إليّ من أن أجاهدهم فيك من قوم آذوا نبيك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تُمِتْنِي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة» .

[السيرة النبوية لابن هشام]

فَيُحْمل سعد إلى مسجد النبي ﷺ الذي أمر أن تضرب لسعد خيمة فيه ، ليعوده من قريب ويطمئن عليه عن كثب .

وقد رد الله الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وانصرفوا عن المدينة ، ووضعت الحرب أوزارها فعزم النبي ﷺ على السير إلى بني قريظة الذين خانوا العهد ، ونقضوا الميثاق ، وَأَلَّبوا القبائل على الحرب. ونادى في أصحابه قائلاً من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنّ العصر إلا في بني قريظة ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، ونزلوا على حكم النبي ﷺ فدعا بسعد بن معاذ ليحكم فيهم ؛ فهو سيد الأوس ، وهو الذي كان يحن على اليهود ويحسن إليهم فجاء سعد محمولاً على دابته فلما أقبل قال النبي ﷺ للأنصار : قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه وَحَيّوه وأنزلوه ، ثم قال سعد : «لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء» ، قال ﷺ : «لقد حكمت فيهم

بحكم اللـه » [رواه أحمد].

فانفجر جرح سعد بعد ذلك وانفتق عِرْقه ، فعجل إليه النبي ﷺ فأسنده إلى صدره ، فوضع رأسه في حجره ، والدماء تسيل عليه ، فجاء أبو بكر يصيح ويبكي : وانكسار ظهراه على سعد!! ، فقال له النبي ﷺ مهلاً يا أبا بكر ، ثم جاء عمر فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وابتهل النبي ﷺ إلى الله قائلاً : « اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك وصدّق رسولك ، وقضى الذي عليه فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً » ، وحينما سمع سعد هذه الكلمات التي نزلت على قلبه برداً وسلاماً فتح عينيه في جهد ليودع الدنيا بنظرة إلى وجه النبي ﷺ ثم قال : « السلام عليك يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله » ، ثم فاضت روحه رضي الله عنه ، فقال ﷺ : « هنيئاً لك أبا عمرو » ، ثم قال لأهل البيت : « استأذن اللهَ من ملائكته عددُكم في البيت ليشهدوا وفاة سعد » [سير أعلام النبلاء].

ثم حُمِلَ سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى القبر ، وكان رجلاً بادناً فلما حملوه وجدوا جنازته خفيفة ، فقال رجل من المنافقين : « والله إن كان لبادناً ، وما حملنا أخفّ منه » فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إن له حملة غيركم والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش » [سير أعلام النبلاء] .

وروي أنه قد شيعه من الملائكة سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك .

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كنت أنا ممن حفر لسعد قبره بالبقيع، وكان يفوح علينا المسك كلّما حفرنا طبقة من تراب حتى انتهينا إلى اللحد .

وبكت أم سعد على فقده بكاءً مريراً فقال لها ﷺ : «ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك فإن ابنك أول من ضحك الله إليه واهتز له العرش» .

[سير أعلام النبلاء]

ولقد كان طيف سعد رضي الله عنه وذكراه لا تفارق النبي ﷺ فهو الوفي لأصحابه العارف بمنزلتهم المقدر لحقوقهم . فيأتي الحديث عن القبر وعذابه وضمته ، فيقول ﷺ : «إن للقبر ضغطةً ، ولو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ [رواه أحمد] .

وتُهدَى له ﷺ جبة من ديباج منسوجة بالذهب فلبسها فجعل الناس يمسحونها وينظرون إليها ، ويعجبون من لينها ورقتها ، فقال لهم ﷺ : «أتعجبون من هذه الجبة؟» ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينا قط أحسن منها ، قال : «فوالله لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين» .

[رواه مسلم والترمذي]

صلى الله على النبي الأمين ورضي عن الصحابة أجمعين وجمعنا بهم في جنات النعيم ،،،

الدنيـــــا

عشقها العاشقون ، وهام بها المحبون ، كم لها من عاشق متأوه ، ومتيّم متحسر ، ومحب متألم؟! ظهرت في زينتها ، وعرضت في فتنتها وتبدّت في محاسنها ، فخدع بها أُناس ، وافتتن بها فئام ، ظنوا أنها صادقة في الحب ، مخلصة في الشوق ، تواقة للغرام ، وفيّةٌ للأحباب ، ناصحة للأصحاب ، فتنافسوا في كسب ودها ، واقتتلوا للظفر بقربها ، فأردتهم صرعى ، وتركتهم هلكى ، وذلك جزاء الحمقى . والعجب أن خُطَّاب ودها ، وطلاب مجدها ، لم يعتبروا بإخوانهم من العشاق القدامى ولم يتعظوا بمن خدعتهم من الندامى فارتموا في أحضانها ، وتسابقوا في ميدانها ، وهي لا زالت تتفنن لهم في إبداء زينتها ، وتتحبب لهم ببعض مباهجها ؛ حتى إذا أحكمت الزمام ، غدرت وفجرت وفتكت وقتلت . كم لها من محروم يتألم ، ومهضوم يتظلم؟! كم ذبحت من فارس على مخدة الترس ، وعروس على منصة العرس؟! فمن هي هذه الفاتنة ، ومن تكون تلك الخائنة ؟!!

إنها **الدنيا** ؛ الدنيا التي لها من اسمها نصيب ، الدنيا التي عشقناها ، بل همنا في حبها ، وتنافسنا في قربها ، وأمهرناها أنفسنا ومشاعرنا وقلوبنا ، إلا من رحم ربك . لو تأمّلنا أحوالنا ، بل وأحوال من

سبقنا لوجدنا أن الدنيا وحبها ، والحياة وطيبها ، هي سبب رئيس في كل نازلة ، وعنصر مهم في كل قارعة ، فما طغى فرعون وأمثاله إلا حينما أخلدوا إلى الأرض ومباهجها ، وخدعوا بالحياة وزينتها . وما بغى قارون وأمثاله إلا حينما فتنوا بنعيم الحياة ، وغرهم المال والجاه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

[القصص : ٧٧]

ولقد فُتن عبّاد المادة وعشّاقُ الحياة الدنيا بما عندهم من المال والزينة ، قال سبحانه : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص : ٨١].

وهكذا على مرّ العصور تجد أن عشق الحياة ، والتعلق بأذيال الدنيا ، سبب في الشقاء ، وطريق للعناء ، كم ذهب لأجلها من نفوس؟! وكم تطاير من رؤوس؟! وكم سحق من جماجم؟! وكم أريق من دماء؟! وكم شرّد من أناس؟! وكم عذب من أقوام؟! وما ارتقى المسلمون إلا حينما تجافوا عن الدنيا وأقبلو على الآخرة ، وما خفضت رؤوسهم ، ونكست أعلامهم ، وذهبت عزتهم ، إلا حينما رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، فأقبلوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتركوا الجهاد ، وأكلوا الربا ، وأخذوا

بأذناب البقر .

أيها المومنون تعالوا بنا نقف وقفة تأمل وعظة ، وتفقه وعبرة ، مع هذا العدو اللدود ، والغاشم الغادر ، فقد فنيت أعمار كثير منا ، وانصرمت أيام فئام منا ، وهم لا زالوا في غمرة الدنيا ، وسكرة الحياة ، فيا عجباً لمن جاءه العام تلو العام ، ومرت به السنة بعد السنة، تذكره بالحياة الآخرة ، وتدعوه إلى النعمة الدائمة ، وهو في غفلته وشروده ، وبعده وجحوده !! . فيا من قضيت العمر وراء شهواتها ، ألم يأن لك أن تنظر في أمرك؟! ويا من انصرمت أيامه في الدنيا وملذاتها ، ألم تبك على عمرك؟! ويا من عشت تبيع دينك بعرض من الدنيا قليل ، ألم تعتبر بالذين مروا من قبلك؟! ويا من عشت تأكل الدنيا بالدين ، وتكسب الغُنْم بالعلم ، وتمتهن النفاق لنيل الأرزاق ، ألم تراقب الخلاق؟! يا من أقبلت على الدنيا بحلالها وحرامها ، وفتنت في غرامها ، ألم تفكر في النهاية ، وتتأمل في النتيجة؟! .

الدنيا إذا وصلت فتبعات موبقة ، وإذا فارقت ففجعات محرقة ، ليس لوصلها دوام ، وما من فراقها بد . وصفها خالقها ، وموجدها بأنها لهو ولعب وزينة ، فقال جل وعلا : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد : ٢٠].

فالحياة الدنيا حينما تقاس بمقاييسها الدنيوية ، وتوزن بموازينها تبدو

في العين والحس أمراً عظيماً هائلاً ، وشيئاً جميلاً رائعاً ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود ، وتوزن بميزان الآخرة ، تبدو شيئاً زهيداً تافهاً ؛ فهي لعب وضياع ولهو وتفاخر ، وغرور خادع ، وأمل كاذب، وظل زائل.

قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٥].

مر ﷺ بالسوق والناس كنفيه – أي على جانبيه – فمرّ بجدي أَسَكّ ميت فتناوله ، فأخذ بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ » ، فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال : « أتحبون أنه لكم؟ » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أَسَكّ ، فكيف وهو ميت؟ ، فقال ﷺ : « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

[رواه مسلم]

ويقول ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » [رواه الترمذي وابن ماجة].

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مثل الدنيا مثل الحية ليّنٌ مَسّها ، قاتل سمها ، فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها ، لما أيقنت من فراقها ، وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور ، أبعده عنها مكروه ، وإن سكن منها إلى إيناس ، أزاله عنها إيحاش .

فهي لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب ، ولا تخلو من فتنة ، ولا تُخْلِي من محنة ، نعيمها يتنقل ، وأحوالها تتبدل ، ولذاتها تفنى ، وتبعاتها تبقى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١].

قال المسيح عليه السلام : « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها » .

فمن نظر إليها بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل : إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ؛ هي دار حلالُها حساب ، وحرامها عقاب ، المكدود فيها شقيٌّ إن ظفر ، ومحروم إن خاب . إن أخذ مالها من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن أحبها أذلّته ، ومن تبعها أعمته .

لما بلغ أحد الملوك العظماء من الدنيا مراده ، ووصل إلى ما سمت إليه نفسه ، نبذها وصرخ قائلاً : هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، ومُلْك لولا أنه هُلْك ، وغناء لولا أنه فناء ، وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود ، وارتفاع لولا أنه اتضاع ، وغلاء لولا أنه بلاء ، وحُسْن لولا أنه حزن ، وهو يوم لو وثق له بغد .

هـي الـدار دار الأذى والـقـــذى
ودار الـفـنـاء ودار الـغِـيَـرْ
فلو نلتـهـا بحـذافـيـرها
لـمُـتّ ولـم تـقـضِ مـنـهـا الـوطـرْ

فهي ظل الغمام ، وحلم النيام ، من عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق .

قيل لبعض الزهاد : قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها؟ فقال : أيقنت أني أخرج منها كارهاً فرأيت أن أخرج منها طائعاً .

قال ﷺ : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً ومتعلماً» [رواه الترمذي وابن ماجة] .

عوتب أحد الصالحين في كثرة الصدقة ، فقال : لو أن رجلاً أراد أن ينتقل من دار إلى دار أكان يُبقي في الأولى شيئاً؟ .

وقيل لأحدهم : ترك فلان بعد وفاته مائة ألف درهم ، فقال : ولكنها لا تتركه .

فالسعيد من اعتبر بأمسه ، واستظهر لنفسه ، والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه ، وما طلعت شمس إلا وعظت بأمس .

قرأ ﷺ قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ، ثم قال : «يقول ابن آدم مالي .. مالي ، وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو

لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» [رواه مسلم].

إذا اختـبـر الدنيا لبيبٌ تكشفت
له عن عـدو في ثيـاب صـديق

فالعاقل لا ينخدع بها، بل يعتبر بمن مضى من الأمم السابقة، والقرون الماضية، كيف عفت آثارهم، واضمحلت أنباؤهم.

أَبَني أبينا نحن أهل منازلٍ
أبداً غراب البين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وهل من معشرٍ
جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى
جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لحد ضيق

يقول ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» [رواه مسلم].

وكان ﷺ يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» [متفق عليه].

فالدنيا مهلكة، والفرح بها متلفة، والانخداع بها مصيبة ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩].

قال ﷺ : «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» [متفق عليه].

فإن كان قد فتح على الناس من زهرة الدنيا وزينتها فيما مضى فلم تر البشرية زينة ولا فتنة ولا بهرجاً مثل ما عرفه الناس في هذا الزمان ، فتنٌ محدقة ، وشهواتٌ مغرقة ، وقنوات هابطة ، وشاشات مدمرة ؛ زُيِّنت الشهوات ، وقُرِّبت الملذات ، وأصبح الملتزم بدينه ، والمحافظ على نفسه وأهله ، كالقابض على الجمر ، فيا بشرى لمن صان نفسه ، وحفظ دينه ، وطهر بيته ، وصدق في تربيته ، قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة:٤٥].

أيها الناس .. لا يقصد بذم الدنيا تركها بالكلية ، والتجافي عنها تماماً ، وإنما القصد من ذلك ترك بهرجها الزائف ، وبريقها الخادع ، وعدم الاغترار بها . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فالمؤمن يتخذها طريقاً للجنة ، ومزرعة للآخرة ، وتزوداً للتقوى .

ذم رجل الدنيا عند علي بن طالب رضي الله عنه فقال له : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاح لمن فهم عنها ، ودار غنىً لمن تزود منها ، ومهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة .

قال تعالى : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [القصص : ٧٧].

يقول ﷺ : «والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم» [رواه البخاري].

فيا من فتنت بالدنيا ألم تعتبر بمن سبقك بها؟ ، هل خلدوا فيها هل دامت لهم ، هل راحوا منها بغير الأكفان؟!!.

هل أنت معْتبرٌ بمن خَربتْ ... منه غداة قضى دساكرهُ
وبمن أذل الدهرُ مصرعه ... فتبرأتْ منه عساكرهُ
وبمن خلت منه أَسِرَّتُه ... وتعطلت منه منابرهُ
أين الملوك وأين عِزّهُمُ ... صاروا مصيراً أنت صائرهُ
يا مؤثر الدنيا لِلذته ... والمستعد لمن يفاخرهُ
نل ما بدا لك أن تنال من الد ... نيا فإن الموت آخرهُ

سئل ﷺ من أَكْيس الناس ؟ فقال : «أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» .

[أخرجه ابن ماجة]

ويقول علي بن أبي طالب : يا أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع ، وإن أضمرتم علم ، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم ، وإن أقمتم أخذكم .

فخذ من نفسك لنفسك ، وقس يومك بأمسك ، وكف عن سيئاتك

وزد في حسناتك ، فإنك راحل لا محالة ، وسائر في الطريق الذي سار فيه الآباء والأجداد والأصحاب والأحباب .

ما للمقابر لا تجيب إذا دعاهن الكئيبُ
حُفرٌ مسقّفة عليهن الجنادل والكثيبُ
فيهن ولدان وأطفالٌ وشبان وشيبُ
كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيبُ
غادرته في بعضهن مجندلاً وهو الحبيبُ
وسلوت عنه وإنما عهدي برؤيته قريبُ

البحر

كنت في سفر إلى إحدى المدن فمررت بالبحر ووقفت أمامه برهة من الزمن فثارت في نفسي مشاعر جمّة ، وخواطر متعددة ، وأفكار متباينة ، فتعالوا بنا إلى نقلة سريعة ، ورحلة بحرية ، نترك فيها البر جانباً ، وننتقل إلى البحر ، لنقف فيها على هذا المخلوق الهائل ، نتأمل شيئاً من عظمته وبعضاً من أسراره ، وطرفاً من أخباره .

البحر مخلوق عجيب ، ونبأٌ غريب ، آية من آيات القدرة الباهرة ، ودليل من دلائل العظمة الفائقة ، عالم غريب ، ومركب رهيب مهيب .

هذا هو البحر بجماله وجلاله ، وعظمته وأهواله ، وتغير أحواله ، وديع حتى ليلعب به طفل صغير ، وجبار يرتعد فيهلك الأسطول الكبير، هادئٌ هادر ، ثابت ثائر ، بارٌّ غادر ؛ إنه صورة صادقة من صور الزمان في إقباله وتجهمه ، وابتسامه وعبوسه ، ومده وجزره ، ولينه وشدته ، وحلاوته ومرارته ، قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ [يونس : ٢٢].

فهو مُتَقلِّبٌ تَقَلُّب الزمان ، مُتغيِّر تَغيُّر الحياة ، يأتي إليه المؤمن الخاشع فيجلس أمامه ، فيقرأ فيه دلائل العظمة ، وآيات القدرة ، ويزيده إيماناً إلى إيمانه ويقيناً إلى يقينه ، فيقوم عنه ذاكراً شاكراً ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٤].

يقف المؤمن ينادى البحر :

أيها البحر لا يَغُرَّنْك حولٌ
واتساع وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرة قد حوتها
ذرّةٌ في فضاء ربي تدور
إنما أنت قطرةٌ في إناءٍ
ليس يدري مداه إلا القدير

ويجلس أمامه العاشق المدنف ، والمحب المتأوه ، فيشكو إليه هجر الحبيب ، وبعد الرفيق ، وكأنه يشتكي إلى عاقل بصير ، ولطيف خبير . وكم من محب فقد حبيبه ، وأليف فارق أليفه ، فوجد في البحر سلوة! . ويجلس إليه المهموم الذي ضاقت به نفسه ، وأظلمت أمامه الحياة ، ولم يجد في البر مأوى يسكن إليه ، أو ركناً يأوي إليه فيشتكي له الهم ، ويبثه الغم ، ويتنفس الصعداء على شاطئه ، فيقوم عنه وقد هدأ همه ، وخفت وطأةُ غمه ؛ فكم من دموع أريقت على شاطئه ، وكم من نفس بكت على ساحله!! الخلوة مع الله تعالى على البحر لها طعم آخر ،

والخلوة مع النفس على البحر لها طعم آخر!! والخلوة مع الحبيب على البحر لها مذاقٌ آخر !! .

البحر صبور لا ييئس ، مجدٌ لا يمل ، قوي لا يضعف ؛ يحارب الصخور الصماء فيقلبها بصبره ، وينال من قسوتها وصلابتها مع رقته وسلاسته ، ويذيبها في نفسه ، فإذا هي لا شيء ، وإذا هو كل شيء . كم مرّت به من أمم؟! وكم عبرت عليه من دول؟! وكم استمتع بروعته من أناس؟! فمضوا وانقضوا ، وتولوا وانتهوا ، وهو لا يزال صامداً ثابتاً ، رابضاً في مكانه ، معتزاً بقوته ، لا يخشى ملكاً لملكه ، ولا جباراً لجبروته ولا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، ولا بائساً لبؤسه . عمقه هائل ، موجه مضطرب ، حركته دائمة ، قوته ضخمة ، بطشته قاتلة ، وَثْبته مدمّرة ، مبعث للحب ، مؤنس للقلب ، مثير للإجلال ، داعٍ إلى الإكبار ، يسرح معه الخيال ، وتحلو إليه المناجاة ، وتنطلق معه النفس .

ولقد ركبت البحر يزأر هائجاً
كالليث فارق شبله بل أحنقا
ولقد شهدتُ به حكيماً عاقلاً
ولقد رأيت به جهولاً أخرقا
مستوفز ما شاء أن يلهو بنا
مُتَرفِّقٌ ما شاء أن يترفقا
تتنازع الأمواج فيه بعضها
بعضاً على جهلٍ تنازعنا البقا

بينا يراها الطرف سوراً قائماً
فإذا بها حالت فصارت خندقا
والفلك جارية تشق عبابه
شقاً كما تفري رداءً أخلقا
تعلو فنحسبها تؤم بنا السما
ونظن أنا راكبون مُحَلَّقا
حتى إذا هبطت بنا في لجةٍ
أيقنت أن الموت فينا أحدقا

قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤].

انظر كلمة ﴿وَلَهُ﴾، فهي تسير بحفظه ورعايته وكلاءته جل وعلا.

﴿كَالأَعْلامِ﴾ ثم انظر إلى السفن والبواخر الهائلة التي باتت تنقل إلينا خيرات الدنيا وأرزاقها عن طريق البحر.

ولماذا يُعْجَب الإنسان بالبحر؟ ولماذا تأنس النفس بالبحر؟ ربما لأن بين النفس والبحر تشابهاً كبير، فهو مخلوق لا محدود، والنفس أيضاً مخلوق لا محدود، فهي عميقة كالبحر، بل هي أعمق من البحر وأدق من البحر، والنفس تهيج كما يهيج البحر، وتهدأ كما يهدأ، والنفس تحوي من الدرر والأصداف كما يحوي البحر من الدرر والأصداف، وتتكسر موجاتها كما تتكسر موجاته، وترغي وتزبد كما يرغي ويزبد،

ولها مد وجزر كما له مد وجزر ، وترى منها الجمال وترى منها العنف ، كما ترى الجمال والعنف في البحر .

وكأن الأمواج وهي توالى
محنقات أشجان نفس تثور

ومهما كان الأمر فإن المؤمن يتميز بهذه الميزة عن غيره من الناس ، إن النفس المؤمنة تشعر بالأنس والمؤانسة ، والسلام والموافقة ، والتعاطف مع كل ما حولها من مخلوقات الله جل وعلا ، بما في ذلك الجمادات التي لا تعقل . فالنفس المؤمنة تتفق مع البحر لأنه مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى ، وجندي من جنوده ؛ يعمل بأمره ، ويسبح بحمده ، ويجري بإذنه ، ويبطش بإرادته ، وينطق بعلمه وحكمته .

يقول ﷺ عن أحد وهو جبل أصم : «إن أُحُداً جبلٌ يحبنا ونحبه» .

[رواه مسلم]

وإن بيننا نحن المسلمين – أعني بذلك المسلمين منذ آدم عليه السلام بيننا وبين البحر صداقة وثيقة ، ومحبة عريقة ، ومودة عميقة ، فهي صلة قديمة قدم التاريخ ، عميقة عمق البحر ، فقد أسهم البحر في نصرة الدعاة ، وتأديب الطغاة ، فهو الذي حمل موسى وهو رضيع ، وانشق له ولجنوده ، وأدب فرعون وقومه ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص : ٧] .

ثم استجاب البحر فيما بعد لعصا موسى ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب**

بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] ، فنجا موسى ثم انقض على عدو الله فكان من المغرقين ، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٥].

ولنا مع البحر قصةٌ أخرى لداعية آخر ، وهو نبي الله يونس عليه السلام « ذو النون » ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات : ١٤٦].

ولنا مع البحر والنهر قصص عظيمة وعجيبة ، أيام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأيام القواد الفاتحين ، والأبطال المجاهدين ، مما سجله التاريخ ، وتحدثت به الدنيا ، حتى مشوا بخيولهم على الأنهار وعبروا بها في وضح النهار .

هذي سفين الله سارت فيلقاً
متراميا في فيلقٍ متراص
يهتف بالتكبير لحناً شاحباً
فتجيب أمواج الخضم الطامي
لم تدفع الريح الهبوب قلاعها
بل أقلعت بالوحي والإلهام

جالت سنابك خيلهم في لجةٍ
جولانها في مهمهٍ ورجام
نفذوا إلى أسوار قسطنطين في
عزم كحد السيف غير كهام

يقال إن أسطول معاوية رضي الله عنه في البحر قد بلغ ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدة ، وقد قطع البحر الأبيض ووصل إلى أسوار القسطنطينية ، فحاصرها حيناً من الزمان . وهكذا كان لسلفنا – رضي الله عنهم وأرضاهم – جولات مع البحر وصولات، عبروه إلى أنحاء الدنيا فأشرقت بهم الرسالة ، وانتشر بهم ضياء الوحي ، وأذكرك هنا أن تسرح بخيالك سريعاً لتقيم مقارنة بين موقفهم من البحر وموقفنا منه ، ولا سيما إذا كنت قد مررت على كثير من بلدان المسلمين ، فوقفت على شواطئها ، وسرت على سواحلها ، أمور تنكس الرأس ، وتجلب الذل ، وتكدر الخاطر . لغطٌ وصخب ، خمور وفجور ، عري وتفسخ ، عهر وهمجية ، وقاحة وحيوانية . يهدأ البحر ولا يهدؤون ، ويبيت ولا يبيتون ويُسبّح ولا يُسَبِّحون . والأسماك في جوفه ، والمخلوقات في قعره تذكر خالقها ، وتسبح رازقها ، تسير بأمره ، وتسبح بحمده ، وتعرف قدره ، وهي تستغفر لطالب العلم في لجّته ، وهم يعلنون الحرب على الدين على ساحله!! .

قال تعالى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] المخلوقات جميعاً قد سجدت لخالقها ، وأذعنت لقدرته وخشعت لجبروته ، وأولئك قد

سجدوا لشهواتهم ، واستجابوا للذاتهم ، وعبدوا نزواتهم ، فكانت الأسماك والدواب أكرم منهم ، وأعز منهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨].

ونختم الحديث عن البحر بهذه الوقفة مع بعض آيات الله تعالى في البحر .

قال تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ٢٤].

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الماء أكبر من اليابس على الكرة الأرضية ، فالماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ، ويشغل اليابس الربع . وتقسيم الماء على هذا النحو لم يجئ مصادفة ولا جزافاً ، فهو مقدر تقديراً عجيباً ، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة ، ويقول العلماء : «وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان» .

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة

الشمس ، وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله .

وتصب جميع الأنهار تقريباً في البحار ، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها .

واللؤلؤ والمرجان المذكوران في الآية هما من أعجب المخلوقات البحرية التي تنطق بعظمة الله تعالى وقدرته ، والمتأمل فيما في البحر من مخلوقات ، وما سخر الله تعالى في جوفه ، يجد العجب العجاب، والحكمة الإلهية ، والعظمة الربانية! .

قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** ﴾ [النحل : ١٤].

ومن إعجاز القرآن العظيم في البحر قوله تعالى : ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ .

[الفرقان : ٥٣]

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، بعد دراسة ورحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام وهي تجوب بحار العالم .

فبين البحار والأنهار برزخ وفاصل مائي يفصل بين البحر والنهر ، وبين البحار بعضها البعض فاصل وبرزخ يفصل بينها . فسبحان الخلاق العظيم وتبارك الواحد العظيم!! .

البيـــــان

الحمد لله الواحد الديان ، الكريم المنان ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان والصلاة والسلام على صفوة ولد عدنان ، وأكرم إنسان ، وأفصح من نطق بلسان .

قال الله جل وعلا : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن : ٤].

فالبيان نعمة عظمى ، وهبة كبرى من المولى جل وعلا ، واللسان معجزة ربانية ، وميزة إنسانية . إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ، ويبين ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين ، فننسى مع طول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة ، فيردنا إليها القرآن ، ويوقظنا لتدبرها الرحمن ، قال سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [النحل : ٧٨] .

إن تكوين جهاز النطق وحدة عجيبةٌ لا ينقضي منها العجب : اللسان والشفتان ، والفك والأسنان ، والحنجرة والقصبة الهوائية ، والشعب والرئتان .. إنها كلها تشترك في عملية التصويت ، وهي حلقة في سلسة البيان ، ولم يكن هذا البيان ليؤدي هدفه الاجتماعي ، وغرضه المقصود ، وفائدته المرجوّة لولا تميز كل شخص بصوته ولسانه ، والفروق

الفردية في الأصوات تثير الاستغراب والعجب العجاب ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] ، فهناك اختلاف في اللغات نفسها ، وهناك اختلاف في أصوات الناس ، ولو تشابهت الأصوات ، لحدث في الحياة اضطراب شديد ، وخلل أكيد . يهاتفك صديق أو إنسان من آلاف الناس الذين تعرفهم ، فتعرف صوته ، وتميز نغمته ، وتحفظ نبرته . يمتن الله جل وعلا على الإنسان ، ويذكره بنعمة اللسان في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : ٩] .

فاللسان مزود بسبع عشرة عضلة تسمح له بحركة كبيرة ، ونسيج الشفتين نسيج خاص يتشكل بحسب الحاجة ، وهذه المرونة التي يتمتع بها نسيج اللسان ونسيج الشفتين هي التي أتاحت له القيام بوظيفتين مختلفتين « الأكل والكلام » .

علمه البيان : قال ابن القيم : البيان يتناول ثلاث مراتب كل منها يسمى بياناً :

١ – البيان الذهني الذي يميز بين المعلومات .

٢ – البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها لغيره .

٣ – البيان الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيبين للناظر معانيها كما يتبين للسامع ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

اللسان .. عنوان الإنسان ، وهبة الرحمن ، ومعجزة الديان ، ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة ، أو صورة ممثلة!! ، الإنسان باللسان يترجم عن مكنونه ، ويُبين عن مقصوده ، فهو ترجمان بمستودعات الضمائر ، وإخبار بمكنونات السرائر ، به يُعبر عما في النفس ، ويترجم عما في الصدر ، ويعلن عما في القلب ، به يتمكن المرء من الكلام والفهم والإفهام ، والتواصل مع الأنام . كلمة الحق باللسان ، والدعوة إلى الله باللسان ، ونشر الخير وتعليم الخلق باللسان .

اللسان .. صغيرٌ جرمُه ، عظيمةٌ طاعتُهُ وجُرمُه ، وهو رحب الميدان ليس له مردّ ولا لمجاله حدّ .

اللسان .. إذا استقام نهجه ، وحسنت طريقته ، صار نعمة من أجل النعم ، وعطية من أعظم العطايا . إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات .

القلب ملك الجوارح واللسان ترجمانها قال ﷺ : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفُّر اللسان تقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » [رواه الترمذي].

باللسان يسبح الواحد الأحد ، ويذكر الفرد الصمد ، ويدعى إلى الإيمان ، ويُحث على الفضيلة ويُحذر من الرذيلة وتقام الحجة على المعرض ويُبين الهدى ، ويُردّ عن الردى ، قال ﷺ : « من وقاه الله شر ما بين لحييه ، وشر ما بين رجليه دخل الجنة » [رواه الترمذي].

لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، وسبحان الله لفظة من دعائم التقديس ، وأستغفر الله كلمة من عبارات التوبة . ومن أصول معية الله للعبد حركة اللسان به جلّ وعلا ، وفي الحديث القدسي يقول عز وجل: « أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه » [أخرجه ابن ماجة].

إنه من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ، فمن حق المنعم بهذه النعمة أن تسخر في طاعته وتوجه في رضاه .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ .

[الأحزاب : ٧١]

فالقول السديد سببٌ لصلاح الأعمال ، وغفران الذنوب ، وتكفير السيئات .

دخول الإسلام بكلمة : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [محمد : ١٩] والخروج منه بكلمة : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾ [المائدة:٧٣] والميثاق كلمة : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الاعراف:١٧٢] .

وينال العبد رضا مولاه إلى يوم القيامة بكلمة قال ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه » [رواه مالك في الموطأ] . ويهوي المرء في جهنم ، ويتجرع غصصها ، ويسقى حميمها ، ويصلى لهيبها بكلمة

، قال ﷺ : «وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» [رواه البخاري].

بالكلمة المؤثرة ، واللسان الفصيح ، تنشر الدعوه ، ويقبل الحق ، وتؤيد الحجة ، قال جل وعلا : ﴿ **وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي** ﴾ [القصص : ٣٤] .

﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ [طه : ٢٧].

ويَحلّ الغضب ، وينزل المقت ، وتكتب اللعنة بكلمة ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** ﴾ [المائدة : ٦٤].

وبقول الحق وإعلان الإيمان ، والرضا بالإسلام تنال الجنة ، ويعظم الثواب ، ويحسن المآب : ﴿ **فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٨٥].

يوم تُعْرِض الألسنة عما خلقت له ، وتنحرف عما صنعت له ، تصبح أداة هدم ، وآلة دمار ، فكتمان العلم باللسان ، قا ل تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٩] ، وليّ الشهادة باللسان قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا** ﴾ واللعن باللسان : «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» [رواه البخاري في الأدب المفرد] ، والغيبة باللسان : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ [الحجرات : ١٢]

اللسان يوم لا يردعه العقل ، ولا يرده الشرع ، يصبح سيفاً مصلتاً

على الأعراض ، وسيلاً مدمّراً للحرمات ، وريحاً زمهريراً على القيم بكلمة من اللسان تداس كرامة الشريف ، ويُدنس الطاهر العفيف ، وتلطّخ سمعة البريء .

كم من رؤوس تطايرت بسبب كلمة؟! وكم من نعمةٍ منعت بسبب كلمة؟! وكم من فتنةٍ أوقدت بسبب كلمة؟! وكم من بيوت شُتِّتت بسبب كلمة؟!.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه
وليس يصاب المرء من عثرة الرِّجل
فعثرته في القول تذهب رأسه
وعثرته بالرجل تشفى على مهل

* * *

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقديماً قالت العرب : لسانك حصانك ، فإن صنته صانك ، وإن أهنته أهانك .

يروى أن عيسى عليه السلام قال : «طوبى لمن بكى على خطيئته ، وخزن لسانَه ، ووسِعَهُ بيتهُ» .

وقال سليمان عليه السلام : «إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب»

أمسك عليك لسانك :

* كل ما ينطق به الإنسان مدوّن في صحيفة الأعمال :

﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨].

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج : ٣٠].

﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم : ٧٩].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء : ٥٣].

* قول الخير من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر :

قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » [متفق عليه].

* ليس المسلم من يشهر لسانه على المسلمين ويطلقه في أذية المؤمنين :

قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [متفق عليه].

* أكثر ما يُكب الناس في النار ألسنتهم :

قال ﷺ لمعاذ : « كُفَّ عليك هذا (يعني اللسان) » فقال معاذ : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! ، فقال : « ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » [رواه الترمذي].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان ، الفم والفرج » [أخرجه ابن ماجة].

وقال ﷺ : «من يضمن لي ما بين لَحْييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» [رواه الترمذي].

* أكثر الخطايا من اللسان :

قال ﷺ : «إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه» [أخرجه الطبراني والبيهقي].

حفظ اللسان عن الناس وصونه عن تتبع عوراتهم سبب في ستر الله على المسلم : «من كف لسانه ستر الله عورته» .

[أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت]

* إذا لم يستطع الإنسان الكلام في الخير فإن صمته حفظ له ونجاة قال ﷺ : «من صمت نجا» [رواه احمد].

وجاء أعرابي إليه ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلي الجنة قال : «أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير» .

ويعطي ﷺ درساً في التربية وحفظ اللسان فيقول : «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة -يعني أدنى منزلة فيها- لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقُه» [رواه أبو داود].

بعض مواقف السلف من اللسان :

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأخذ بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : ليس هناك أحق بطول سجن من اللسان .

ويقول أنس رضي الله عنه : « لا يتقي الله عز وجل رجل حق تقاته حتى يَخْزِن لسانه » .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله ما أحببت الدنيا إلا لثلاث ، ذكر منها : مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر .

وقال طاووس : لساني سَبُعٌ إن أرسلته أكلني .

وكان – رحمه الله – يتعذر من طول السكوت ، ويقول : « إني جرّبتُ لساني فوجدتُه لئيما » .

وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه .

إنما العاقل من ألجم فاه بلجام
لُذْ بداءِ الصّمتِ خيرٌ لك من داء الكلام

وقال وهب بن مُنَبِّه في حكمة آل داود : « حقٌّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شانه » .

قال إبراهيم التيمي – رحمه الله – : « المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر ، فإن كان كلامُه له تكلم ، وإن كان عليه أمسك عنه ، والفاجر إنما لسانُه رسْلاً رَسْلا » .

يجب حفظ اللسان من الآفات المهلكة ، والعبارات المدمرة ، وعلى المسلم حفظ لسانه عن كثرة الكلام في غير ذكر الله ، وما يقرِّب من رضاه

وأن يحفظه من الخوض في الباطل ، والانهماك في الرذائل ، ويصونه عن الفحش والسباب والبذاءة واللعن والسخرية والاستهزاء ، والكذب والغيبة والنميمة والجدل . . إلى غير ذلك من الصفات المقيتة ، والمجالات الذميمة التي ليس هذا مجال حصرها ، ولا ميدان استقصائها .

« فاملك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » [صحيح الجامع] ، واشتغل بعيوبك عن عيوب الناس واحبس لسانك قبل أن يطيل حبسك ، أو يتلف نفسك ، أو يعرضك لسخط ربك . وإذا جالست الجهال فأنصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن إنصاتك للجهال زيادة في الحلم ، وإنصاتك للعلماء زيادة في العلم .

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ
زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومن أقلل من الكلام أكثر من الصواب ، ومن وزن الكلام سلم من عيوب النطق .

تكلم وسدد ما استطعت فإنما
كلامك حيّ والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله
فصمتك عن غير السداد سداد